

د . طيب تيزيني

ملاحظات حول

مفهوم الحضارة لدى زكي نجيب محمود

في الندوة التي انعقدت في الكويت في الفترة ما بين ٧ - ١١ نيسان ١٩٧٤ تحت شعار « ندوة أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي » ، القى الدكتور زكي نجيب محمود (موفدا من مؤسسة الاهرام - القاهرة) محاضرة افتتحت بها الندوة ، وكانت بعنوان « الحضارة وقضية التقدم والتخلف » .

وقد شارك في الندوة صاحب هذه المقالة .

ولما كانت محاضرة الدكتور محمود قد قامت ، في رأيي ، على اساس تعوزه الحقيقة الموضوعية ، فاني اجد في ذلك مناسبة للكتابة في هذا الموضوع ، بهدف الاسهام في تعميق بعض النتائج الايجابية التي خرجت بها الندوة .

الدكتور زكي نجيب محمود يعمل في بحثه على الوصول الى الحلقة التي يرى انها اساسية من اجل تحديد « الحضارة » . فهو يكتب : « فما هي الصفة .. التي تجمع الى كونها ضرورية للحضارة ان تكون كذلك كافية لتعريفها ؟ وهي انما تكون كافية ، اذا امتنع ظهورها من كل حياة اخرى ، ما يتفق الناس على انها ليست في عداد الحضارات » .

وهو لكي يصل الى تلك « الصفة » الضرورية والكافية ، يعمل على اكتشاف القاسم المشترك بين اربع حضارات لا يظن « احدا يجادل في رفعة حضارتها ، وهي : اتيانا في عهد بركليز في القرن الخامس قبل الميلاد ، بغداد في عهد المأمون في القرن التاسع ، فلورنسه في القرن الخامس عشر ، باريس في عصر التنوير ابان القرن الثامن عشر » . ونتيجة بحث في عوامل التكوين الحضاري ، يصل الدكتور زكي نجيب محمود الى ان « القاسم المشترك الذي نراه في تلك النماذج الاربعة جميعا ... ، هو الاحتكام الى العقل وحده في قبول ما يقبله الناس وفي رفض ما يرفضونه » .

وحين يتساءل عن ماهية « هذا الذي نسميه عقلا » ، يجيب انه « ببساطة شديدة ذلك النمط من انماط السلوك ، الذي يتبدى عندما نحاول رسم الطريق المؤدية الى هدف اردنا بلوغه . فليس الهدف المختار في ذاته « عقلا » لانه وليد الرغبة وحدها ، وليست النقطة التي ابدأ منها السير على الطريق « عقلا » لانها مبدأ مفروض ، اما « العقل » بمعناه الدقيق فهو ... رسم الخطوات الواصلة بين هذا

المبدأ المفروض من جهة ، وذلك الهدف المطلوب من جهة اخرى » .

ف « سلطان العقل - اذن - هو مدار القياس لدرجات الحضارة » . وكذلك « فالاولوية في البناء الحضاري للعقل وفكره » .

ويرى الدكتور زكي نجيب محمود ان « ما بني على العقل .. ثابت على الدهر لا يزول ، ولذلك كان محالا علينا ان نحكي تاريخا للحضارة متسلسل الحلقات ، صاعد الخطوات ، الا اذا تعقبنا ما انتجه العقل ، لان نتاجه - دون اي نتاج آخر - هو الذي يظل يكمل نفسه عصرا بعد عصر .. ، واما الفن واما الادب وغيرهما من كائنات العالم الوجداني في الانسان ، فلا يأتي الجديد ليعلو درجة على القديم ، بل ربما حدث ان تفوق القديم على الجديد .. ان هذا التابع الضروري لا يتحقق الا في ميدان العلوم ، التي هي رمز للعقل ونتاجه » ، اما « الاداب والفنون فكلمة « التقدم » بالنسبة اليها ليست بذات معنى » .

هذه هي - بتكليف - وجهة النظر الاساسية للدكتور زكي نجيب محمود فيما يخص الحلقة الاساسية « الكافية والضرورية » لبناء الحضارة .

ولقد تصدى بعض المفكرين الذين اشتركوا في الندوة (مثل محمود امين العالم وسهيل ادريس) لوجهة النظر هذه ، ولكن بسبب اتساع حجم المهام التي طرحت امام المتدربين ، بالاضافة الى ضيق الوقت ، لم يكن ممكنا ان تمتح هذه المسألة حيزا كبيرا من جلسات الندوة .

ولم تفنني الفرصة ، اذ كنت احد الذين تصدروا لتلك المسألة . وانا اعلم الان على صياغة ما كنت قد طرحته في الندوة ، على نحو يغطي القضية بالحدود الممكنة .

لقد اخذت معالم « الحضارة » الانسانية تطرح نفسها بشكل اولي ، حينما اكتملت عملية استقلال الانسان عن شروط الضرورة والكفاية الاقتصادية المباشرة في ابعادها الاولى الجينية . وقد تم هذا الامر في الوقت الذي اخترع فيه الانسان ادوات عمل منفصلة عنه ، بعد ان كان فيما سبق (في مرحلة انتقاله من المجموعات الحيوانية

الى صيغته الجسدية المتميزة بانتصاب الفاهة ، وبالقدرة على مسك الاشياء وصنعها . وينمو قدرته العقلية في اطار نشوء لغة نفاهم اولية بسيطة (يعتمد اعتمادا اساسيا على بنيته الجسدية ، من منانة في قامته واحتداد في قواطع وطول وغلاظة في شعره الخ ...

بمعنى فلسفي نقول ان الخطوة الاولى في عملية البناء الحضاري الانساني كانت مرهونة بتحول الانسان الى ذات ، اي بنشوء ذات متميزة نسبيا عن الموضوع . ان هذه « الذات » هي في الحقيقة ، كما يبدو حصيلة منفردة على نحو واضح من حصيلات التحول والتقدم الذي لحق بذلك « الموضوع » ، الذي هو العالم الطبيعي .

ولكن مع تحقق هذه العملية ، لم تتكون الا الخلفية الاولى وغير المباشرة للبناء الحضاري الانساني . ذلك لان الانسان ظل هنا (اي في ما ندعوه بالمجتمع المشاعي البدائي) خاضعا لما عبرنا عنه فوق بشروط الضرورة والكفاية الاقتصادية المباشرة .

من هذا المنظور النهجي المادي التاريخي تتكشف لنا المعالم الاساسية للخطا التاريخي والمعرفي الذي يرتكبه زكي نجيب محمود في تحديده للواقع الحضاري . ان « العفل » الذي يمثل جانبا اساسيا من جوانب الحضارة الانسانية ، وبالتالي قوة دافعة في سبيل هذه الحضارة ، يحول على يدي الدكتور محمود الى العامل الفروري والكافي لها .

ان بناء الحضارة التطبيقية لم يتم اولا على اساس من تطور وتقدم العقل ، وانما هذا الاخير تطور وتقدم في اطار التغير الاساسي الذي شمل نوعية وكيفية ادوات العمل . طبعاً ، الحديث هنا عن علاقة جدلية بين كلا الطرفين ، ادوات الانتاج والعقل ، امر صحيح . وذلك انطلاقاً من العلاقة الضرورية الجدلية بين « الموضوع » و « الذات » .

بيد ان هذا امر ، والقول بان العقل هو الشرط الفروري والكافي للبناء الحضاري ، امر آخر . نحن لا نقول بان العقل حصيلة ميكانيكية للتطور الذي لحق باداة العمل ، انما نقول انه حصيلة هذا التطور الموضوعي الذي كان هو - العقل - طرفاً فيه .

ان « الذات » الانسانية تنطوي بطبيعة الحال على العقل . وبالتالي فهذا الاخير يدخل على كل حال في اطار عملية التصدي لـ «الموضوع» .

ان عملية التصدي تلك تمت وتتم عبر ادوات العمل ، التي تشكل ، ضمن هذا المنظور ، « استطلاعات » للذات الانسانية . وهي استطلاعات ذات اهمية جوهرية مبدئية ، لانه بمعزل عنها لا يمكن لعملية التواصل بين الذات والموضوع ان تتحقق .

بالاضافة الى ذلك ، ينبغي الاشارة الى ان « الموضوع » هو بالاصل « المادة الخام » ، اي غير المصنعة ، غير المؤنسة . ذلك لانه في الحين الذي يدخل فيه التأثير الانساني في العالم الخارجي « الخام » والموجود على نحو موضوعي ، تنطلق عملية انسة هذا العالم ، اي تحويله الى « موضوع » . هكذا نكتشف العلاقة الضرورية الجدلية بين الموضوع والذات (هذه الذات التي يشكل فيها العقل جزءا اساسيا الى جانب السلوك العملي والشاعر والمواطف) .

ليس هنالك اسبقية لواحد من الطرفين على الآخر . كلاهما ضروريان لاستكمال عملية التكوين الحضاري . ومن هنا يبدو الحديث عن ان « العقل » هو العنصر الكافي والفروري لبناء الحضارة ، مجرد

عن اي معنى حقيقي . اعد كان انتقال الانسانية من المجتمع المشاعي البدائي (مجتمع الكفاف والضرورة الاقتصادية المباشرة) الى المجتمع الطبقي (مجتمع الفيض الانتاجي والثقافي) هو الشرط الفروري والكافي لبناء الحلقة الاولى في طريق الحضارة . ان « الفيض » هو في حقيقة الامر المظهر الحقيقي لتجاوز الانسان الفيد الطبيعي تجاوزا حاسما بالحد الفروري .

والامر الذي ينبغي التركيز عليه ، هو ان ذلك « الفيض » فيض في الانتاج المادي وفي الانتاج العقلي الروحي . وقد تم هذا الوضع في حدوده الاولى حينما اتيح للانسان - عبر التقدم الذي لحق بادوات العمل والذي كان اكتشاف المعادن والنار قد لعب دورا خطيرا في دفعه الى امام - ان يتجاوز الوضع المتميز بالاناج لـ « الاستهلاك » الى الوضع المتميز بالانتاج ليس فقط للاستهلاك ، وانما كذلك لـ « الانتاج » ، اي حينما تحول الانتاج الى هدف بذاته .

لقد فاد ذلك الوضع الى خلق الخطوات الاولى على طريق انقسام النشاط الانساني الى واحد « فكري » وآخر « يدوي » او « جسدي » . وكان هذا قد كون الصيغة النظرية والعملية للتحول الحضاري في شكله الاول . ان « العقل » قد نشأ هنا متمتعاً بقوة . اخذت تبرز شيئاً فشيئاً عبر استقلاله نسبياً عن الواقع العياني . ولقد كان ذلك في الحقيقة البدايات الضرورية لانبثاق اشكال جديدة من الوعي الاجتماعي ، مثل الفلسفة والعلوم ، وان كان ذلك بالنسبة لهذه العلوم لا يدخل الا في نطاق بسيط جدا بسبب ان الفلسفة برزت في صفتها الحكمية الموسوعية .

ان الفلسفة المثالية والفلسفة المادية على حد سواء وجدتا في انقسام العمل ذاك مصدرا رئيسيا من مصادرهما النظرية . بيد ان المثالية منهما استطاعت عبر ذلك ان تقلب عنق الواقع . فهي ، اذ تنطلق من ان الفكرة (او المثل لدى افلاطون) هي الوجود الحق وان الواقع لا يمثل في احسن الحالات الا وجودا في حدود الامكان ، تكون قد خلقت حجابا كثيفا بين « الفكرة » ومصدرها « الواقع » .

ان الطاولة ، في رأي افلاطون مؤسس الفلسفة المثالية الموضوعية ، لا تتمتع بوجود فعلي . اما الذي يتمتع بهذا الوجود فهو « الفكرة » عن الطاولة . والحقيقة لكي نفهم هذه المسألة بعمقها الدقيق ، علينا ان نضعها في الاطار الذي تكونت فيه عموماً ، وهو انقسام العمل الى فكري ويدوي ، اولا ، وفي اطار تصنيف هذا العمل بشكليته المشار اليهما ضمن المجتمع الطبقي الوليد (المجتمع اليوناني العبودي مثلا) . فالعمل الفكري جعل منه ليس فقط المظهر الكافي والفروري للحضارة (قارن : زكي نجيب محمود فيما سبق) ، وانما كذلك الينوع والمصدر الحقيقي للوجود الحق عموماً .

هكذا زيفت العلاقة بين الفكر والواقع على نحو فلسفي مشروع في اطار التطور الطبقي الحضاري في حينه ، وبقي هذا التزييف على نحو عام يخدم حتى الآن العداء للعلم وللتقدم الاجتماعي ، خصوصا في البلدان الرأسمالية الصناعية .

وعلى هذا الاساس من الفهم للامور ، يبدو لنا بمزيد من القناعة العلمية الخطا الرئيسي التاريخي والمعرفي الذي يحيط بوجهة النظر التي يطرحها زكي نجيب محمود حول « الحضارة » .

بيد ان التصدي لوجهة النظر تلك يستتبع كذلك التعرض الى

وجزيئاته ، لا يدخل في نطاق البحث العلمي « الخالص » .

اما ما يخص قوله بان الامة العربية لا يسعها الا ان نأخذ بمعامل الحضارة في نموذجها الغربي ، محتفظة في نفس الوقت بالافكار والعقائد التي اكتسبتها عبر تاريخها الطويل ، فانه من الضروري كذلك ان نسير الى انه يخلق حدا فاصلا مصطنعا بين التقدم في العلوم الطبيعية العقلية وبين الاشكال الفكرية التي تدخل في نطاق الحياة الوجدانية . فالفن والشعر لا يتقدمان ، برأيه ، وان كانا يتطوران . وتطورهما هذا لا يعني ان الاشكال اللاحقة تضاهي الاشكال القديمة ، وانما يعني ان تلك الاشكال الاولى والثانية لا نستطيع ان نصنفها تصنيفا تاريخيا يدخل في نطاق التقدم .

ان زكي نجيب محمود لا يكشف هنا الوظيفة المعرفية للفن والشعر ، وبالتالي لا يدرك انها خاضعان ايضا ، من خلال هذه الوظيفة ومن خلال تشابك هذه الاخيرة مع النسق الجمالي لهما ، للتقدم التاريخي .

كلمة اخيرة تتعلق بالبناء الحضاري في الوطن العربي ، وقد كان هذا الامر موضوع الندوة التي اشرنا اليها فوق .

ان الوطن العربي لم ينجز في التاريخ الحديث ثورة بورجوازية تحتوي مهمات ثلاثا، مهمة التحويل الاجتماعي الانحائي ، ومهمة الوحدة القومية العربية ، ومهمة التحويل الثقافي . وقد حدث هذا نتيجة التواطؤ الذي عقد بين الاستعمار - تلك الظاهرة التي نشأت في القرن التاسع واولئ العشرين كحلقة نهائية للوجود الرأسمالي - والافطاع الداخلي الذي خلف وراءه مرحلة تاريخية جديدة اسنمرت على الاقل من القرن الحادي عشر حتى التاسع عشر . وكانت وما تزال مهمة هذا التواطؤ اجهاض ثورة بورجوازية عربية . وكان ذلك .

وحيثما نطرح قضية التطور الحضاري بالمعنى الواسع في اطار الوطن العربي ، لا يسعنا الا ان نؤكد على ان اشلاء الطبقة البورجوازية العربية الهجينة لم تستطع ان تخلق مرحلة نهوض وصعود اساسية ، تتيج لنفسها عبرها ان تثور المجتمع العربي .

ولذلك فتجاوز هذا الوضع المسلود الاتاق في اطار ذلك الوجود البورجوازي الاقطاعي الهجين . اصبح امرا داخلا اولاً واخيراً في نطاق ثورة اشتراكية نحقق على طريقته الخاصة مهمات الثورة الاجتماعية الانتاجية الصناعية ، والوحدة العربية والثورة الثقافية .

جانبا آخر من مسألة البناء الحضاري ، ان هذا الجانب يتعلق بالتمييز الدقيق والعميق بين مرحلتين رئيسيتين في وجود الطبقات الاجتماعية التي تكونت في التاريخ وما زال قسم آخر منها موجودا في عصرنا الراهن . المرحلة الاولى هي مرحلة الصعود او النهوض للطبقة . وهنا تمثل هذه الطبقة قوة اجتماعية تاريخية تقدمية ، تكن تقدميتها في انها تحقق تطابقا جديدا على هذا النحو او ذاك بين قوى الانتاج (الانسان المنتج ، اداة الانتاج ، موضوع الانتاج) وعلاقات الانتاج (علاقات الملكية والتبادل والتوزيع) ، وفي انها تدفع حركة التطور للبنية الفوقية (الوعي الاجتماعي بجمع اشكاله والمؤسسات الاجتماعية والسياسية والعلمية ...) بهذا القدر او ذاك الى امام .

نطبقة السادة في اليونان القديمة فامت في مرحلتها الاولى ، مرحلة الصعود ، بتحقيق تلك المهمة بشكل خلاق يدعو الى الدهشة . وكذلك الطبقة الاقطاعية ، ثم الطبقة البورجوازية الحديثة بشكل خاص .

اما المرحلة الثانية في وجود الطبقة الاجتماعية (طبعا في اطار المجتمع الطبقي) فهي مرحلة الانحسار والانحطاط . وهنا تدخل قوى الانتاج في تعارض عميق كثيرا او قليلا مع علاقات الانتاج ، وتتحط اشكال الوعي الاجتماعي ، خصوصا تلك التي تدخل في نطاق الابدولوجية ، من فن و اخلاق وفلسفة ودين وعلوم اجتماعية . فنكتسب هذه الاشكال وظيفة التبرير والتكريس اللاعقلاني واللاعلمي لما هو قائم .

وقد يندو التكنيك والعلم الطبيعي في هذه المرحلة ، كما هو الحال مثلا في الولايات المتحدة الاميركية . ولكن هذا النمو يشكل من طرف آخر شبحا هائلا مضادا للتطور الاجتماعي الانساني في البلد المعني وفي العالم كله (كما يظهر ذلك في الحروب الاستعمارية) . بمعنى اخر ، ان مثل ذلك النمو لا يقدم دليلا على تطور حضاري في هذا البلد او ذاك ، الا اذا كان جزءا من نمو حضاري يشمل علاقات الانتاج والبنية الفوقية . هاهنا يبرز العقل جزءا من اجزاء البناء الحضاري ، او لنقل ، المظهر العقلي فقط لهذا البناء . وهو في الحقيقة كذلك ، اي احد مظاهر ذلك البناء ، لانه يمثل حصيلته ومظهره في آن واحد .

ان الدكتور زكي نجيب محمود ، وهو الوضعي الليبرالي ، لا يستطيع ان يكشف الحضارة في اطارها التاريخي ، لانه ينطلق - شأنه شان الوضعيين - من ان تحليلا علميا للتاريخ والمجتمع في كليانه

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

د . زكي مبارك
د . جلال الخياط
سامي خشبة
فرانسيس جانسون
لدولويه
ا . ا . هوتشتر

بين آدم وحواء
التكسب بالشعر
شخصيات من ادب المقاومة
سيمون دو بفرار او مشروع الحياة
كامو والتمرد
بابا همنفواي

د . طه حسين
» »
خليل الهنداوي
رثيف خوري
رجاء النقاش
صلاح عبدالصبور

مذكرات طه حسين
من ادبنا المعاصر
تجديد رسالة الففران
الادب المسؤل
اصوات غاضبة في الادب والنقد
وتبقى الكلمة